

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور يعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور، خلق الإنسان علمه البيان وكل شيء عنده بمقدار، سبحانه من جعل له عينين ولسانا وشفقتين، وهده النجدين، فسعيد يسره ليسرى وشقي يسره للعسرى، هو الذي خلقكم وما تعملون لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. أحمده حمد من عرف جلاله وكبريائه وأقدس من دون التشبيه صفته وأسماءه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين الذي أرسله الله رحمة للعالمين ونسخ بشريعة دينه كل شريعة ودين، وعلى آله وأصحابه الأكرمين، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، وتابعي التابعين صلى الله عليه وعليهم أجمعين صلاة دائمة إلى يوم الدين.

وبعد: فإن العلم دليل يُقْتَدَى به، وإلى طريق الرشده هاد يُهْتَدَى به ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (سورة فاطر: 28) «والعلماء ورثة الأنبياء»⁽¹⁾ وفي الآية والخبر دليل على أن العلم ما صاحبه العمل، وصدقته الخشية والوجل، فإنه من خشي الله تعالى لما لديه، وسعى فيما يقدم بين يديه، وهل لمن عَرِيَ من الخشية فوز بعمل الحسنات، واستحقاق وراثة تلك الدرجات؟

ومِمَّا ينبغي لمن نزع إلى هذا الترع وطلب هذا العمل الأرفع، أن يتعرّف مناقب السلف والأخبار، ويحصل سيرهم الصالحة ليقتدي بحميد تلك الآثار، فإن

¹ - رواه الترمذي في كتاب العلم باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة رقم 2606، ورواه أبو داود في كتاب العلم باب الحث على طلب العلم رقم 3157. من حديث أبي الدرداء.

ذلك مما يقوِّي الرغبة والاشتياق والحرص على المصير إلى تلك المنازل السنيَّة والحاق، ويحض على الطريق الأقوم، وينهى عن أهواء الهاوين في هواء الخسران والندم، فما أقمن من عرف طريق الصلاح أن يتبعه! وما أقبح من حملهُ أن يضيِّعه! وقد استمرَّت عادة أصحابنا أن أوَّل ما يمرَّن عليه المبتدئ إذا وصل، السكينة والوقار وتعليم سير السلف، لتكون لهم على اتباعهم معينة، فإذا اكتسى تلك الحلة قلَّما بدلَّها، ثم بعد ذلك ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا، وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (سورة فاطر: 2) فالله ينفعهم وينفع بهم في الدنيا والدين، ويجعلنا لآثارهم مُقتفين، لا مبدلين ولا مغيرين، وينقذنا برحمته أجمعين، وهو أرحم الراحمين.

وقد سأل من وجبت طاعته، ولم يسع إهمال أمره وإساءة طاعته أن أجمع من سير أسلافنا وأخبارهم ما تيسر لي جمعه وأضع في ذلك تصنيفا، وأحرز⁽¹⁾ كلَّ خبر بما يليه من كتاب أبي زكرياء يحيى بن أبي بكر رضي الله عنه⁽²⁾، استخلص ذلك وانتقيه.

فبادرت لإجابة سؤاله إيجابا لعظم حرمة السؤال وإن كان ينبغي أن أكون ممن استعفي واستقال، فرأيت عصيانه من النكير بل المحذور، فأخذت في تهذيب الكتاب المذكور، وأضيف إلى ذلك ما لا بدَّ منه من خطبة وشعر غير مشهور، على أنني معترف بالقصر والفهاهة، وراغب في الإغضاء من ذوي الفطانة والنباهة، متيقن أن الماء يطيب بطيب موارده، وإن كان أجاجا، وقد يعود مرًّا معافا وإن كان عذبا ثجاجا، ولا شكَّ أنني قصدت الفن الذي بدأت بذكره، ولم أحفل بعيب عائب،

¹ - في نسخة وأقرن.

² - يشير إلى كتاب تاريخ أبي زكرياء وهو أصل هذا الجزء الأوَّل من الكتاب. انظر مقدِّمة الفهارس.

ولا بشكره، فإن ظفرت بموافقة من أجبت سؤاله فقد ظفرت بالمرغوب، وإن قصرت فلا غرو لإبطاء السكيت⁽¹⁾ عن شأو المجلى، والله أسأله التوفيق والإرشاد إلى سواء الطريق.

وقد رأيت أن أقدم مقدمة تكون فراشا للكتاب، تفهم منها ألفاظ اصطلاح عليه أصحابنا المتأخرون، وفيها عند من لا يعرفها اضطراب، ثم آتى بتسمية مشائخها وذكر طباقهم خلفا عن سلف، على ترتيب يتأتى بيانه، ليم المقصود ويتألف، ثم أجرد السيرة وأنقلها من الكتاب المذكور، على حسب ما وقعت فيه، وما كان في ألفاظه خشونة نقلت معانيه، فيكون تفهم ما سئلت سهلا على قارئه.

ذكر ألفاظ مما اصطلاح عليها أهل الطريق وتعارفه بينهم

[دلالة كلمة العزابي]

فمن ذلك العزابة وأحدهم عزابي، هذه اللفظة استعملتها لقبا لكل من لازم الطريق وطلب العلم وسير أهل الخير، وحافظ عليها وعمل بها، فإن حصل جميع هذه الصفات سمي عزابيا، وإن حافظ على السير والعمل بها فقط سمي به، وإن حصل العلم دون السير والعمل بها والمحافظة عليها لم يسم بهذا الاسم.

واعلم أن لهذا الصنف سيمًا انفردوا بها، وأحوالا عرفوا بها، لا يتفضّل عليهم فيها سواهم، وذلك في تسميتهم، وخطابهم، ومؤاكلتهم، ولباسهم، وأوقات نومهم، وقيامهم، وأورادهم وصيامهم، وعبادتهم، وعندهم في ذلك قوانين يعتادونها

¹ - السكيت بصيغة التصغير: آخر الخيل على الحلبة عكس المجلى.

وحدود لا يتعدونها، وهذا الاسم: مشتقُّ من العزوب عن الشيء وهو البعد عنه، فاستعير لمن بعد عن الأمور الدنيوية الشاغلة عن الآخرة، ولو استقصينا وصف تلك الأحوال لآتسع القول فطال، وسيأتي ذكر ما أمكن من ذلك في موضعه إن شاء الله، وأول ما استعمل هذا اللقب في أيام أبي عبد الله محمد بن بكر رضي الله عنه، لما أسس الحلقة ورتب قوانينها.

الحلقة: اسم لجماعة تشتمل على الشيخ يعلمهم العلم ويلقنهم السير ويصّرهم في الدين بحسب ما يفتح الله على كل واحد منهم، يحصل البعض، وإن أعياه الكل، {فَإِنْ لَمْ يُصَبِّهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ} (سورة البقرة: 265)، فكأنهم محلّقون ولو أنهم مفترقون.

التلميذ: اسم للواحد المبتدئ عند الدخول في الطريق سواء كان طالب فنون أو مقتصرًا على الصلاحية فقط، وأصل هذه اللفظة فارسي.

[الختمة]

الختمة: اجتماعهم لذكر الله والدعاء عند طلوع الشمس وعند غروبها بشيخ أو بغير شيخ، وكأنهم يختمون به عمل الليل وعمل النهار.

المجتمع والجمع والميعاد: ألفاظ مترادفة على معنى واحد وهو أن يجمعهم الشيخ على وعظ يفيدهم، أو لتذكير أمر مهمّ يكون شوري، من إصلاح فساد أو تلافي فوات، أو أمر بمعروف أو نهْي عن منكر، فمع الاختيار أن يكور ذلك يوم الاثنين ويوم الخميس، ويكون في أي وقت دعت إليه الحال، ليلا أو نهارا، في أيّ

يوم كان، أول من رتبته أبو الحر علي بن الحصين بمكة⁽¹⁾.

[الهجران]

الهجران والإبعاد والطرد ألفاظ مترادف على معنى واحد وذلك متى أجرم واحد من أهل الطريق جرماً، أو ظهرت عليه خزية أو أتى بنقيصة في قول أو عمل أو تضييع، فإنه يهاجره كل أهل الصلاح فلا يكلم ولا يحضر جماعة ولا يؤم ولا يؤاكل، ولا يجالس. وكأنَّ خطة حالت بينه وبين أهل الخير، فإن تاب واستغفر قبل منه ورجع إلى الجماعة، وزال عنه شين ذلك الوسم، ويكون بقاؤه في وحشة الهجران بقدر عظم الجرم وصغره، وتوبة المجرم وإصراره.

فمنهم من يتوب فيرجع في الحال، ومنهم من يبقى ساعة أو ساعتين أو يوماً أو يومين أو أياماً أو شهوراً أو أعواماً، أو عمره إن عظم الجرم وداوم المجرم على الإصرار، وترك الاستغفار، أسأل الله أن يقينا شر أنفسنا وشر كل ذي شر.

الظهور: تولية إمام عدل يسند إليه الأمور.

الكتمان: ملازمة الأمر سرّاً بلا إمام.

ولاية الدفاع: أن يدهم أهل الكتمان بداهمة، فيولّوا عليهم من يدفع عنهم العدو.

¹ - أبو الحر علي بن الحصين العنبري الشاري من أصحاب عبد الله بن يحيى طالب الحق وهما من الشراة، عاش أوائل القرن الثاني للهجرة بالبصرة وبمكة المكرمة وله مجلس علم بما. وسيأتي الحديث عنه في الجزء الثاني ص 80 رقم 22

ذكر طبقات المشائخ وتسمية المشاهير منهم جيلا بعد جيل

هذا الفصل نقله مما فعله الشيخ أبو عمّار عبد الكافي رضي الله عنه⁽¹⁾: وذلك أنه لما رأى العزّابة يسندون أمر دينهم واحدا عن واحد، أكابر عن أكابر، وثقة عن ثقة، رأى من حسن نظره أن يكون ذلك جملة عن جملة، ولم يتخللها خلل ولا اختلال، لأنّ ذلك إذا كان واحدا عن واحد دخله الغلط ووقع فيه الطعن ولأنّ أخبار الآحاد ضعيفة عند أصحاب الحديث، فرتبها رحمه الله على المائتين من سني الهجرة، والتاريخ الذي بينه وبين هجرة رسول الله صلى الله عليه وآله، وذكر الخمسين من كل مائة، وسَمِّي من تيسر ذكره ممن اشتملت عليه كلُّ خمسين سنة من المئتين المذكورة.

[قائمة في أسماء المشائخ]

فالذين اجتمعت عليهم الخمسون الأولى من المائة الأولى هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، وفضيلتهم رضي الله عنهم، وأسمائهم ومزاياهم أشهر من أن نحتاج إلى تعدادهم، فهم نجوم الهدى ومصايح الدجا، وإنما نعتت على مكانتهم من أمهاد الفضل، تبركا بذكرهم، ولئلا يكون السكوت عن ذكرهم في محالهم من التقدم إغراضاً، أو التجوز عن شرفهم غمطاً وإغماضاً.

وممن اشتملت عليهم الخمسون الأخرى من المائة الأولى: جابر بن زيد الأزدي، وعبد الله بن إباح المرّي، وعمران بن حطان الشيباني، وجعفر بن السماك العبدي، وأبو بلال مرداس وعروة ابنا أدية، وهي جدة لهما، وهما ابنا جدّير⁽²⁾ حنظليان فيما ذكره المبرد، وصحار العبدي، وقريب، وزحاف، وسالم بن

¹ - يشير إلى كتيب للشيخ أبي عمار عبد الكافي الوريحاني توفي حوالي سنة 570هـ.

² - ضبطه في أعلام الإباضية باسم حُدَيْر بالحاء المهملة

عطية الهلالي، والخبّاب بن كليب، والأحنف بن قيس، وإياس بن معاوية، ونظراؤهم كثيرون.

وممن اشتملت عليه الخمسون الأولى من المائة الثانية: أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي، وضمام بن السائب، وأبو مودود حاجب الطائي، وأبو عبيدة عبد الله بن القاسم، وأبو نوح صالح بن نوح الدهان، وعبد الله بن يحيى الكندي، وأبو حمزة المختار بن عوف الشاري، وبلج بن عقبة، وأبرهت بن عبد الرحمن، وأبو الحر علي بن الحصين العنبري، وأبو يزيد الخوارزمي، وأبو محمد النهدي، وأبو روح ومازن ابنا كنانة، ونظراؤهم كثير ممن اشتملت عليه الخمسون الأخرى من المائة الثانية.

ومن هنا انتشار المذهب بالمغرب، ولذلك كان رجاله شرقيين وغربيين عربا وبربرا تلامذة أبي عبيدة وغيرهم: الربيع بن حبيب، ووائل بن أيوب الحضرمي وأبو غسان مخلد بن العُمرد، وعبد السلام بن عبد القدوس، ومحبوب بن الرحيل، وأبو الخطاب المعافري وهو عبد الأعلى بن السمح، وعبد الرحمن بن رستم الفارسي، وعاصم السدراتي، وأبو داود القبلي، وإسماعيل بن درار الغدامسي، وعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، وأبو حاتم الملووزي وأبو سفيان، ونظراؤهم كثير.

وممن اشتملت عليهم الخمسون الأولى من المائة الثالثة: أفلح بن عبد الوهاب، وأبو مرداس، ومهدي، وأبان بن وسيم، ومحمد بن يانس، وأبو مهاصر، وأبو زكرياء التكويتي، وعبد الحميد، ونظراؤهم كثير.

ممن اشتملت عليه الخمسون الأخرى من المائة الثالثة: محمد بن أفلح وابنه يوسف وسعد بن أبي يونس وعمروس بن فتح، وأبو منصور إلياس، وأبو معروف، و نظراؤهم كثير.

وممن اشتملت عليه الخمسون الأولى من المائة الرابعة: حسنون بن أيوب، وأبو مسور اليهراسني، وأبو الخطاب وسيل بن سَيْتَن⁽¹⁾ الزواغي، وأبو القاسم يزيد بن مخلد، وأبو خزر يَعْلَى بن زلتاف، وهى أمه، وهو ابن أيوب، وعبود المزاتي، وجُنُون بن يمران، وسليمان بن ماطوس، وسليمان بن زرقون النفوسي، ومحمد بن مسلم وأبو سهل الفارسي، ونظراؤهم كثير.

وممن اشتملت عليه الخمسون الأخرى من المائة الرابعة: أبو نوح سعيد بن زنگيل وأبو صالح بكر بن القاسم اليهراسني، وأبو زكرياء فضيل بن أبي مسور، وأبو عمرو النميلي، وأبو موسى عيسى بن السمح الزواغي، وأبو نوح سعيد بن يخلف المدوني، وأبو محمد ويسلان بن يعقوب ونظراؤهم كثير.

وممن اشتملت عليه الخمسون الأولى من المائة الخامسة: ومن هنا ابتداء العزابة أبو عبد الله محمد بن بكر، وزكرياء ويونس ابنا فضيل بن أبي مسور، وعبد الله بن مانوج، وعبد الله بن زورزتين، وويسلان بن أبي صالح وأبو بكر الزواغي، وورسفلأس بن مهدي، وعبد الله بن الخير، وورسفلأس بن عبد الله، وأبو مكحول مَطْكُودَاسَنَ الزَّنَزَقِي، وأهل غار «أَمْجَمَاج»: أبو جابر بن سِدْرِمَام، وأبو عمران موسى بن زكرياء، وكباب بن مصلح وأبو يحيى زكرياء بن جَرْنَان، وعبد الله المدوني ونظراؤهم كثير.

وممن اشتملت عليه الخمسون الأخرى من المائة الخامسة: سليمان بن يخلف، وأبو سليمان داود بن أبي يوسف، وأبو العباس أحمد بن محمد بن بكر، وعيسى بن

¹ - أثبتته صاحب السير الشماخي باسم وسيل بن سنتين، وكذلك الشيخ علي يحيى معمر في كتابه: «الإباضية في موكب التاريخ».

يرشوكسن ويحيى بن أبي بكر، وزكرياء بن أبي زكرياء، وماكسن بن الخير، ومزين بن عبد الله، ومصالة بن يحيى، وسليمان بن موسى، وعبد الله بن سلام⁽¹⁾، وإسماعيل بن يدير.

ومن اشتملت عليه الخمسون الأولى من المائة السادسة: عبد الرحمن بن معلى، ويحيى بن زكرياء، وأيوب بن إسماعيل، وإسماعيل بن المعيز، وعبد الله بن محمد. فإلى هنا انتهت تسمية من سميّا - ثم قال: **فهؤلاء أئمتنا في الدين وقاداتنا في الإسلام رحمهم الله.**

قال الشيخ أبو العباس: فهذا الترتيب الذي رتبّه الشيخ أبو عمار عبد الكافي رضي الله عنه حسن في المعنى، إلا أنه لم يذكر الطبقة التي فيها شيوخه ومعاصروه إلا بعضاً من الكلّ واستغنى فيها عن كثير من العدد، وفي من سمي كفاية، ولولا قصده الإكتفاء بتسمية من سمي لزدت من معاصريه عدة مشائخ، أئمة أهل علم ودين، وأصحاب تواليف: أضراب عثمان بن خليفة السوفي وقرناؤه، ولكني عدلت عن ذلك إذ المقصود تسمية جماعة فالحصول قد حصل، ورأيت أن أذكر جماعة الأشياخ الذين أخذوا عن الجماعة التي انتهى إليها ترتيب الشيخ أبي عمار وأضمّمهم إلى الخمسين الأولى من المائة التي نحن فيها وهم الذين أخذنا نحن عنهم، وفي آخر الكتاب أذكر إن شاء الله ما وصل إليّ وصحّ عندي من مناقبهم، وكراماتهم، فيتقدّم ذكر مناقب من تقدّمهم فيكون كل واحد في رتبته، ويجري كل سابق في حلبته.

فممن اشتملت عليه الخمسون الأخيرة من المائة السادسة أبو عمار عبد

¹ - في نسخة ابن أبي سلام.

الكافي بن يعقوب التناوتي، وأبو يعقوب يوسف بن إبراهيم السدراتي، وابنه إبراهيم، وزكرياء بن صالح، وفصيل بن أبي مسعود، وإسحاق بن إبراهيم، ومحمد التميمي، وموسى النفوسي، وأبو نوح بن يوسف وابنه يحيى، ويوسف بن خلفون، ومحمد بن أبي علي السوفي، وعبد السلام بن عبد الكريم، والفضل بن أبي سفيان، وإسماعيل بن صالح، ويوسف بن محمد الوسياني، وفي هذه الطبقة أدركتهم يعدون جدّي سليمان بن علي، وجدّي يخلف بن يخلف النفوسي، ونظراؤهم كثير.

وممن اشتملت عليه الخمسون الأولى من المائة السابعة مشائخ جيلنا فمنهم من صار إلى الله ومنهم الأحياء، فمن الأموات: محمد بن أبي جميل، وسعد بن معاذ، وإبراهيم بن إسحاق، وأبو سهل يحيى، وأبو يعقوب بن عبد الله، وميمون بن معدين، وقد أشير علي بأن أنظّم والدي في سلكهم [سعيد بن سليمان]، ومن الأحياء: يحيى بن فصيل، وعيسى بن زكرياء وصالح بن سليمان الزواغي، ويحيى بن داود السعيدي ويبيب بن محمد، وأحمد بن محمد، وعمرو بن يخلف الزواغي، ومن هذه الطبقة معاصرون من أهل الاجتهاد والزهد والكرامات وليسوا هنالك في العلوم: عبد الكافي بن ونمو الريغي، وإبراهيم بن عيسى المديوني، وسليمان بن يكتى ونظراء النوعين كثير.

فهؤلاء أشياخنا وقادتنا وأئمتنا وساداتنا جعلهم الله أعلاما للهدى، وجنّبتنا بإتباعهم سبيل الموبقات والردى، وحشرنا أجمعين في زمرة أوليائه المتقين.

ثم نأخذ في ذكر ما بسطنا لأجله مقدمة الكتاب، ونذكر الأمم فالأمم من أخبار المتقدمين، ونأتي بعده بمناب الصالحين، وربما أندرج ذكر بعض المناقب في

أثناء التاريخ والأخبار، والله الموفق وبه نعتصم وهو حسبنا ونعم الوكيل، ومن هاهنا ابتدائي في استخراج ما انبه عليه من الكتاب المذكور⁽¹⁾ فأوّل ذلك ذكر سبب مصير مذهب الإباضية ببلاد المغرب وابتداء أمرهم ونقله من أرض المشرق وأخبار حملة العلم الخمسة النفر.

[أوّل داع لمذهب الإباضية بالمغرب]

حدّث غير واحد من أصحابنا عن الإمام أفلح عن أبيه عبد الوهاب عن جده عبد الرحمن بن رستم أنّه قال: أوّل من جاء يطلب مذهب الإباضية ونحن بقيروان إفريقية: سلمة بن سعيد⁽²⁾ قال: قدم علينا من أرض البصرة ومعه عكرمة مولى ابن عباس متعقبين على بعير، فسلامة يدعو إلى مذهب الإباضية، وعكرمة يدعو إلى مذهب الصفرية، فسمعت سلامة يقول: «وددت أن لو ظهر هذا الأمر -يعني مذهب الإباضية- يوما واحدا من أوّل النهار إلى آخره فلا أسف على الحياة بعده»، فقام عبد الرحمان مجتهدا في ذلك الأمر، فقال له رجل من أهل الدعوة: «إن كنت تريد العلم بما كلفت به وعلقت مطلبه بخاطرك، فدونك أرض البصرة، فإنّ بها رجلا عالما يكتنّى: أبا عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي، فإنّك تجد عنده ما تطلب»، فلذلك توجه عبد الرحمن بن رستم إلى البصرة رحمه الله، وقيل: إنّ أمه هي التي أرشدته إلى ذلك⁽³⁾، وله حديث سأذكره بعد إن شاء الله، عند ذكر الخمسة النفر الذين قرأوا على أبي عبيدة، وأذكر ما صحّ عندنا من خبرهم في موضعه من الكتاب.

¹ - يعني كتاب السير وأخبار الأئمة لأبي زكرياء الوريثاني. انظر مقدّمة الفهارس.

² - المشهور في المراجع باسم: سلمة بن سعد. وورد اسمه بـ: سلامة بن سعد، وبـ: سلمة بن سعيد، في بعض المراجع.

³ - ولا يبعد ذلك فإنّ أم عبد الرحمان حسبما يذكر بربرية مات زوجها في رحلته إلى الحج وتعرّفت بأب عبد الرحمان فتزوجت به واصطحبها إلى القيروان عند رجوع الحجيج.

ذكر فضائل الفرس من العجم

بلغنا أن رسول الله ﷺ لما نزل قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ...» (سورة المائدة: 54) أشار إلى سلمان الفارسي وكان جالسا بين يديه قال: «لعلهم أن يكونوا من رهط هذا». وعنه ﷺ قال «إنَّ لله كثرًا ليس من ذهب ولا من فضة، لكنه في بطون أبناء فارس»، وذكر ابن ذاب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه مشى ذات يوم مع المغيرة بن شعبة، وكان المغيرة أعور، فقال له عمر رضي الله عنه: «هل أبصرت بعينك هذه قط شيئا يا مغيرة؟» قال: «نعم يا أمير المؤمنين» قال له عمر: «سيعور الإسلام كما عورت ثم ليعمين حتى لا يدرى من له ولا من عليه، فإذا أتى عليه مائة وستون سنة ردَّ الله عليه سمعه وبصره، بوفد كوفد الملوك، طيبة أرواحهم، صالحة أعمالهم»، فقال له المغيرة: «من أي ماء يا أمير المؤمنين؟ أمن ماء الحجاز أم من ماء العراق أم من ماء الشام؟ فولى عنه عمر وتركه، فوليت الفرس تاهرت على رأس ستين ومائة. وعن رسول الله ﷺ قال: «لو تعلق الدين بالثريا لثالثه رجال من العجم، وأسعدهم به فارس»⁽¹⁾، وروى زيد بن أسلم أن رسول الله ﷺ رأى رؤيا وقصَّها على أصحابه فقال: «رأيت غنما سوداء خالطتها غنم بيض، فتأولتها أن العجم يدخلون الإسلام فيشتركونكم في نسائكم، وأموالكم»، فتعجبوا من ذلك، فقالوا: «العجم يدخلون بلادنا يا رسول الله!» فقال: «أي، والذي نفسي بيده لو أن الدين تعلق بالثريا لثالثه رجال من العجم، وأسعدهم به أهل فارس»، ومن طريق آخر أن النبي ﷺ قال: «لو تعلق العلم بالثريا لثالثه الفرس»، وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: «سُتَدْعُونَ

¹ - رواه البخاري في كتاب تفسير القرآن باب قوله {وآخرين منهم...} رقم 4518، ورواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة باب فضل فارس رقم 4618، ورواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة محمد. من حديث أبي هريرة بلفظ: «لو كان الإيمان...».

إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ» (سورة الفتح: 16) هم بنو حنيفة وقال بعضهم: هم فارس⁽¹⁾.

[قصة سقوط شرفات الإيوان وملوك فارس]

وذكر ابن قتيبة وعمرو بن بحر الجاحظ وغيرهما من أصحاب التاريخ عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: لما كان ليلة مولد النبي صلى الله عليه وسلم، ارتجَّ إيوان كسرى، فسقطت منه أربع عشرة شرافة فعظم ذلك أهل مملكته، فما كان بأوشك من أن كتب إليه صاحب اليمن يخبره أن بحيرة ساوة⁽²⁾ غاضت تلك الليلة، وكتب إليه صاحب الشام يخبره أن وادي السماوة⁽³⁾ انقطع تلك الليلة، وكتب إليه صاحب طبرية⁽⁴⁾ يخبره أن ماء تلك الليلة لم يجز في بحيرة طبرية، وكتب إليه صاحب فارس يخبره أن بيوت النيران خمدت تلك الليلة، ولم تخمد قبل ذلك بألف سنة فلما تواترت الكتب عليه أبرز سريره وظهر لأهل مملكته، فأخبرهم الخبر، فقال الموبدان: أيها الملك إني رأيت تلك الليلة رؤيا هالتي، قال له: وما رأيت؟ قال له: رأيت إبلا صعابا تقود خيلا عربا حتى اقتحمت دجلة وانتشرت في بلادنا، فقال له: لقد رأيت، فما عندك في تأويلها؟، فقال له: ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء، ولكن أرسل إلى عاملك بالبحيرة يوجه إليك رجلا من علمائهم فإنهم أهل علم بالحدثان. فبعث إليه فوجه إليه عبد المسيح بن نفيلة الغساني، فلما قدم عليه أخبره كسرى الخبر فقال: أيها الملك والله ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء، ولكن جهّزني إلى خال لي في

1 - راجع تيسير التفسير للشيخ أطفيش في تفسير سورة الفتح.

2 - ساوة مدينة ومقاطعة في بلاد فارس الوسطى واقعة على الطريق بين قزوین والقمر (المنجد).

والإشكال وارد في قول المؤلف: «صاحب اليمن»

3 - السماوة قطاع في العراق له ثلاث نواح، مركزه السماوة (المنجد)

4 - طبرية بحيرة في فلسطين يجتازها نهر الأردن.

الشام، يقال له سطيح فقال: جهّزوه، فلماً قدم على سطيح وجده قد احتضر فناداه فلم يجبه وكلمه فلم يرد عليه فقال عبد المسيح:

أصم أم لم يسمع غطريف اليمن يا فاضل الحكمة أعيت من ومن
أتاك شيخ الحي من آل سسن أبيض فضفاض الرداء والبدن
رسول قبيل العجم يهوى للوثن لا يذهب الوعد ولا ريب الزمن⁽¹⁾

فرفع إليه سطيح رأسه فقال: عبد المسيح على جمل مشيح إلى سطيح، بعثك ملك بني ساسان لارتجاج الإيوان وحمود النيران، ورؤيا الموبدان، رأى إبلا صعبابا، تقود خيلا عرابا، حتى اقتحمت الوادي، وانتشرت في البلاد! قال عبد المسيح: إذا ظهرت التلاوة، وغاض وادي السماوة، وغارت بحيرة ساوة، وظهر صاحب الهراوة، فليس الشام لسطيح بشام، يملك منهم ملوك وملكات على عدد الشرافات، وكل ماهو آت آت، ثم قال:

إن كان ملك بني ساسان أفردهم فإنّ ذا الدهر أطوار دهايرير
منهم بنو الصرح بهرام وإخوته والمهرمان، وسابور وسابور
فربّما أصبحوا منها بمنزلة تهاب صولهم الأسد المهاصير
حنثو المطايا، وجدوا في رحالكم فما يقوم لهم سرج، ولا كور
والناس أولاد علات، فمن علموا أن قد أفلّ فمحقور ومهجور
والخير والشّر مقرونان في قرن فالخير متبع، والشّر محذور

ثم أتى كسرى فأخبره الخبر فغمّه وهاله ثم تعزّى، وقال: «إلى أن يملك أربعة

¹ - وردت القصة في سيرة ابن هشام مع اختلاف في بعض التفاصيل.

عشر ملكا يدور الزمان»، فملك منهم تسعة إلى مبعث رسول الله ﷺ، وقال ابن قتيبة: «فالله أعلم من التمام؟».

وليس إلا الخمسة الأئمة الذين ولوا بتاهرت من أرض المغرب، ولوها نيفا على مائة وخمسين فيما ذكر بعض الرواة، قال أبو العباس أحمد رحمه الله: أما قول الشيخ إن التمام كان بالأئمة الخمسة وأنهم منهم فإنما أراد في النسب لا في غيره، وأراد أن ولايتهم إذ ولوا صحيحا إلا أن ولايتهم على دين الإسلام ومذهب العدل والقوام.

فضائل البربر من العجم⁽¹⁾

وعن فضائل البربر من العجم ما بلغني أن عائشة رضي الله عنها، دخل عليها ذات مرة رجل من البربر وهي جالسة ومعها نفر من المهاجرين والأنصار، فقامت عائشة عن سادتها فطرحتها للبربري دونهم، فانسل القوم واجلين بذلك، فلما قضى البربري حاجته وخرج أرسلت إليهم عائشة، حتى اجتمعوا إليها، فقالت لهم: «ما الذي أوجب خروجكم على تلك الحال؟» قالوا: «لإيثارك علينا وعلى نفسك رجلا كنا نزدريه، ونتقص قومه»، فقالت: «إنما فعلت ذلك لما قال فيهم رسول الله ﷺ»، قالت: «أعرفون فلانا البربري؟» قالوا: «نعم»، قالت: «كنت أنا ورسول الله ﷺ، ذات مرة جالسين، إذ دخل علينا ذلك البربري، مصفر الوجه غائر العينين، فنظر إليه رسول الله ﷺ، فقال: «ما دهاك؟ أمرض؟ فارقتني بالأمس ظاهر الدم، فجتتني الساعة كأنما نشرت من قبر»، فقال: «يا رسول الله ﷺ بتُّ

¹ - انظر كتاب ابن سلام تحقيق شقارتز والشيخ سالم بن يعقوب رحمه الله نشر دار اقرأ للنشر والطباعة لبنان.

في هم شديد»، فقال: ما همك؟ قال: «ترددُ بصرِك فيَّ بالأُمس خفت أن يكون نزل في قرآن»، فقال: «لا يجزئك ذلك، فإنما ترديدي البصر فيك لأن جبريل عليه السلام جاءني، فقال: أوصيك بتقوى الله وبالبربر قلت: وأي البربر؟ قال: قوم هذا، وأشار إليك، فنظرت إليك، فقلت لجبريل: ما شأنهم؟ قال: قوم يحيون دين الله بعد أن كاد يموت ويجددونه بعد إذ يبلى ثم قال جبريل: يا محمد دين الله خلق من خلق الله نشأ بالحجاز وأهل المدينة⁽¹⁾، خلقه ضعيفا ثم ينميه وينشئه، حتى يعلو ويعظم، ويثمر كما تثمر الشجرة، ثم يقع وإنما يقع رأسه بالمغرب، والشيء إذا وقع لم يرفع من وسطه، ولا من أسفله، إنما يرفع من عند رأسه.

[وفد من البربر يفد على عمر بن الخطاب]

وبلغنا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قدم عليه وفد من البربر، من «لواتة» أرسلهم إليه عمرو بن العاص وهم مُحلقو الرؤوس واللحا، فقال لهم عمر: من أنتم؟ قالوا: من البربر من لواتة، فقال عمر لجلسائه: هل فيكم من يعرف هذه القبيلة في شيء من قبائل العرب والعجم؟ قالوا: لا، قال العباس بن مرداس السلمي: عندي منهم علم يا أمير المؤمنين هؤلاء من ولد بني قيس، وكان لقيس عدة من الأولاد، أحدهم يسمى بربر بن قيس، وفي خلقه بعض الرعونة فقال: خرق ذات مرة فخرج إلى البراري، فكثر بها نسله وولده، فكانت العرب تقول تبربروا أي كثروا، فنظر إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فاستحضر ترجمانا ليرجم كلامهم، فقال لهم: مالكم محلقوا الرؤوس واللحا، فقالوا: شعر نبت في الكفر، فأحببنا أن نبدله بشعر ينبت في الإسلام فقال: هل لكم مدائن تسكنونها؟ فقالوا: لا، قال: فهل لكم حصون

¹ - أهل بالبناء للمجهول ظهر وانتشر.

تتحصنون فيها؟ قالوا: لا، فقال: هل لكم أسواق يتبايعون فيها؟ قالوا: لا، قال: فبكى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال له جلساؤه: وما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ قال عمر: أبكاني حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، يوم حنين، حين انهزم المسلمون فنظر إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم، أبكي فقال: ما يبكيك يا عمر؟ فقلت: أبكاني قلة هذه العصابة من المسلمين، واجتماع أمم الكفر عليها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تبك يا عمر، فإن الله تعالى سيفتح للإسلام بابا من المغرب يقوم يعزُّ بهم الإسلام ويذلُّ بهم الكفر، أهل خشية و بصائر يموتون على ما أبصروا، وليس لهم مدائن يسكنون فيها ولا حصون يتحصنون فيها، ولا أسواق يتبايعون فيها، فلذلك بكيت الساعة. حين ذكرت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما ذُكر من الفضل عنهم، فردَّهم إلى عمرو بن العاص وأمره أن يجعلهم في مقدِّمات العسكر، وأحسن إليهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأكرمهم، وأمر عمرو بن العاص أن يحسن إليهم، فكانوا مع عمرو بن العاص حتى قتل عثمان، فلمَّا كان هذا الخبر في عصابة من أهل المغرب عن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، رجونا أن يكونوا أئمتنا ومن اقتنفي آثارهم، وأن يكونوا أهل تلك الفضيلة.

[كانوا يقاتلون ليقوموا دين الله]

وبلغنا أن رجلا من ذرية أبي بكر الصديق رضي الله عنه عن بعض الخلفاء أنه قال: «يا أهل مكة ويا أهل المدينة أوصيكم بالله وبالبربر خيرا فإنهم سيأتونكم بدين الله من المغرب بعد أن تضيعوه، هم الذين ذكرهم الله في كتابه بقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ، أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} (سورة المائدة: 54) لا ينظرون في حسب امرئ غير طاعة الله».

قال البكري: فمن حين وقعت الفتنة إنَّما نقاتل نحن العرب على الدينار والدرهم وأما البربر فإنَّهم يقاتلون على دين الله ليقوموه، قال: وهو يرفع الحديث

إلى ابن مسعود رضي الله عنه آخر حجة حججنا قام خطيباً فقال: يا أهل مكة ويا أهل المدينة أوصيكم بتقوى الله وبالبربر فإنهم سيأتونكم بدين الله من المغرب، وهم الذين يستبدل الله بكم إذ يقول: {وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} (سورة محمد: 38) والذي نفس ابن مسعود بيده لو أدركتهم لكنت لهم أطوع من إمائهم، وأقرب إليهم من دثارهم.

وبلغنا عن عائشة رضي الله عنها أنها أبصرت صبياً له ذوابتان ذا جمال وهيئة فقالت: من أي قبيل هذا الصبي الشقي؟ قالوا: من البربر، قالت عائشة: البربر يقرون الضيف ويضربون بالسيف ويلجمون الملوك لجمام الخيل.

[تفضيل البربر لا يعني تفضيلهم على العرب فهم في الدرجة الأولى]

قلت: وإنما قدم الشيخ رحمه الله ذكر الفرس والبربر تنبيهاً على فضيلة أئمتنا إذ كانوا من الفرس وفضيلة من انتهى إليه مذهبنا بالمغرب إذ كانوا جلهم البربر ولم يقصد بذلك تأخير العرب عن الفضيلة إذ فضيلة العرب أعظم وشرفهم أقدم فمنهم رسول الله ﷺ، وأصحابه، وعلى ألسنتهم أنزل القرآن، ومنهم كان أسلافنا من الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. ولكل حصلة من الفضل بحسب عطاء الله ويسره له، والله يؤتي من فضله من يشاء والله واسع عليم.

سوق الحرث إلى ذكر النفر الخمسة

[حملة العلم وأخبارهم]

أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري، وعبد الرحمان بن رستم